جانب آخر من رحلة الفقى

نيفين مسعد

يجد قارئ مذكرات الدكتور مصطفى الفقى، التى صدرت عن الدار المصرية- اللبنانية قبل أسابيع، نفسه أمام معضلة حقيقية، فالمذكرات فيها خط سياسى لاشك فيه يؤرخ لمرحلة من تاريخ مصر تمتد من منتصف القرن الماضى حتى الآن، لكن المذكرات أيضاً فيها خط إنسانى مهم يكشف عن حصيلة من العلاقات الاجتماعية بالغة التشعب تَمَيَّزَ بها صاحب المذكرات. وبالتالى فإن مَن يختار أن يمشى مع أحد الخطين دون الخط الآخر فإنه فى الواقع إنما يكون قد قرأ نصف المذكرات أو يكون قد قرأ هذه المذكرات بعين واحدة. وعليه ولما كنت قد مشيت مع الخط السياسى فى مقال كتبته للأهرام يوم السبت الماضى فإننى أحب أن أمشى على الخط الإنسانى فى مقال الشروق.

لقد أتاحت شبكة العلاقات الاجتماعية الواسعة التى نسجها الدكتور الفقى مع طيف بالغ التنوع من الشخصيات العامة داخل مصر وخارجها، أتاحت له القدرة على التوسط لقضاء حوائج الناس كبيرها وصغيرها. وعلى المستوى الشخصى اختبرتُ بنفسى هذه القدرة فى عدة مناسبات، أختار منها مناسبتين. المناسبة الأولى عندما لجأت له للتوسط لإلحاق حفيدتى بمدرسة معينة، وكانت أسرة ابنى تتناول معى وزوجى إفطار يوم الجمعة كالمعتاد، فاتصلتُ بالدكتور الفقى وسألته إن كانت له صلة بمديرة المدرسة ورد بالإيجاب، أنهيتُ إليه طلبى فوعدنى خيراً وانتهت المكالمة. وبعد عشر دقائق بالضبط أعاد طلبى ليبشرنى بأن الطلب قد قُبل وأنه يتعين على أسرة ابنى التوجه لدفع المصروفات المدرسية يوم الأحد!، ولم يصدّق ابنى وزوجته أن يُجاب طلبهما بهذا اليسر وفى يوم إجازة، لكن هذا ما حدث. المناسبة الثانية عندما لجأتُ إليه لحل مشكلة كبيرة واجهتنى أثناء عملى فى معهد البحوث والدراسات العربية، وتدَخل بالفعل لدى شخصيات عربية رفيعة المستوى، صحيح لم تُحل المشكلة فى حينها لكن يظل له فضل السعى وليس للإنسان إلا ما سعى. أخلص من ذلك إلى أن كاتب المذكرات بوسعه التدخل لدى مديرة مدرسة فى أمر بسيط وفى مجال بعيد تماماً عن مجال تخصصه، كما أن بوسعه التدخل لدى شخصيات نافذة فى أمر معقد يتصل بمجال الدبلوماسية، وفى مذكراته شيء من هذا وذاك. فى أثناء دراسته بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية- التى كان رئيساً لاتحاد طلابها- سأله مدرّس شاب بالكلية أن يتوسط فى طلب يد زميلة له، وفى العادة لا يحدث أن يطلب عضو هيئة تدريس من أحد طلابه مثل هذا الأمر الشخصي، لكنه حدث. مشى الفقى إلى زميلته ليبثها مشاعر المدرس المتيّم بحبها فاعتذرت له برفق، وعندما علم الدكتور عبد الملك عودة- وهو أستاذ لا يُشَق له غبار فى العلم وخفة الظل معاً- افتتح محاضرته بالقول "أود أن أقدم التهنئة للزميل مصطفى الفقي، رئيس الاتحاد، الذى أصبح يعمل خاطبة!". بعد تخرجه من الكلية، صُدم الفقى بنبأ صدور حكم من المحكمة العسكرية بإعدام زميله المجند، وكانت التهمة الموجهة لهذا الزميل هى الإهمال لأن الصهاينة اقتحموا الموقع الذى يخدم فيه وسرقوا الرادار. أبرق الفقى وزملاؤه إلى الرئيس عبد الناصر لتخفيف الحكم ووسّطوا هدى ابنة الرئيس- وهى خريجة نفس كليتهم- حتى تتدخل لإنقاذ حياة شاب محدود الخبرة العسكرية، وبالفعل تدخلت وتم تخفيف الحكم من الإعدام إلى السجن.

●●●

أما روح الدعابة التى تتخلل المذكرات فهذه حكايتها حكاية، وأظن أن تَحَلّى الدكتور الفقى بهذه الروح المرحة مقابل اتصاف جمال مبارك بالطابع الرسمى كان من بين أسباب كثيرة- أهمها التوريث- أدت لعدم وجود كيمياء إنسانية بين الطرفين، حتى إذا داعبه الفقى ذات مرة وهما فى زيارة رسمية لفرنسا وقال له «هل ستعود أغانى يا جمال يا مثال الوطنية، يا جمال يا حبيب الملايين كالتى كان يتغنى بها الناس لجمال عبد الناصر؟» لم يتجاوب جمال مبارك مع دعابته بل رد عليه «فى تحفظ وبرود» بعد أن غيّر اتجاه الحديث!. وفى المذكرات نجد العشرات من المواقف الجادة التى استطاع الكاتب أن يُفجّر منها مزيجاً من الضحك والدهشة بعد أن تكون الرسالة قد وصلت للقارئ بالوضوح الممكن. عندما كان الرئيس مبارك بصدد تعيين أحد رؤساء الوزراء- وكان مريضاً بالقلب- طلب من الدكتور الفقى أن يسأل الطبيب المعالج عن كفاءة القلب والشرايين لمرشح المنصب الكبير فرد عليه الطبيب بأن الكفاءة خمسة وستون فى المائة تقريباً، وحين علم مبارك بذلك قال «هذا عظيم إنه يمكن أن يستمر معى بضع سنوات قادمة»! يا سلام كأننا مجرد آلات لها تاريخ صلاحية فى نظر صانع القرار. وعندما كان الدكتور الفقى مصاحباً للرئيس مبارك فى زيارته لمقر الأمم المتحدة بنيويورك، فوجئ بأنهم أعدوا له سيارة تشبه سيارة الرئيس تماماً وتتقدمها، وهنا أخذت الأحلام الوظيفية تداعب كاتب المذكرات متصوراً أن هذه مقدمة لوضعه فى إطار وظيفى أرفع، ثم علم بعد ذلك أن القصد كان أن يفتدى حياة الرئيس إذا وقع هجوم على موكبه! فعلاً؟ نموت نموت ويحيا سعد. وعندما تأخر الدكتور الفقى ذات مرة على مبارك بمسودة خطاب عيد العمال تجنبه الرئيس تماماً لمدة أسابيع ثلاثة، ثم قرر إيفاده إلى ليبيا فى وقت كانت تخضع فيه ليبيا للحصار بسبب قضية لوكيربى ولا تتوفر لطائراتها قطع غيار! وذلك حتى يتعلم الدرس جيداً، ولو كانت حياته هى الثمن.

●●●

لا يثق كثيراً الدكتور الفقى مولود برج «العقرب» فى مواصفات الأبراج الفلكية وإن كان يحمل بالفعل بعض خصال برجه وأهمها المجاملة، أما مواصفات برج «القرد» وهو البرج الصينى الذى ينتمى إليه فإنه لم يحدثنا عنها. ولا يتورع ابن الطبقة الوسطى القادم من قرية كوم النصر بمحافظة البحيرة عن حكاية نوادره مع زملائه فى سنة أولى دبلوماسية وهم يتعلمون أصول الإتيكيت على يد خبير مخضرم من العهد الملكي، فمنهم من يأكل الملوخية بالخبز بعد أن يصنع منه «أذن القطة»، ومنهم من يُدخل ملعقة الأرز فى فمه حتى تكاد تصل إلى اللوز، ومنهم من يلتهم الأكل بنهم شَديد حتى ينصحه خبير البروتوكول أن يأكل فى بيته قبل أى عشاء رسمي. ولا يخفى الدبلوماسى القدير أنه كان يحلم بمنصب الأمين العام لجامعة الدول العربية، ونحن نعلم أن الدبلوماسيين قلما يفصحون عن أحلامهم ويُؤثرون إخفاء مشاعرهم. خدمَت الدكتور الفقى الظروف مرتين، مرة بتعيينه فى الخارجية بقرار من الرئيس عبد الناصر، ومرة لترقيته الاستثنائية بقرار من الرئيس مبارك، وتنبأ له العرّاف الهندى بأنه سيدخل القصر بعد شهرين فضحك وظن أن المقصود هو القصر العينى، ثم إذا به يدخل قصر الرئاسة سكرتيراً لرئيس الجمهورية للمعلومات والمتابعة!

●●●

إن مذكرات الدكتور مصطفى الفقى هى مذكرات إنسانية بامتياز، غنية بحكاياتها ومعلوماتها، وشديدة الغنى بمباهجها ومَسراتها.